

كمال طيرشني*

قراءة في كتاب

المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا

الكتاب : المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا

الكاتب : جان غراندان**

ترجمة : عمر مهيب***

مكان النشر : بيروت/ الجزائر

تاريخ النشر : ٢٠٠٧

الناشر : الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف

عدد الصفحات: ١٩٩

اندرجت ضمن سياقات الألسنية واللغوية، لتليها في فرنسا فترة التشدر الفلسفي التي أفرزت أنماطاً ذات صيغ فلسفية معرفية مستقبلية طالما حبّد مهيب على تسميتها الفوضى المبدعة.

في ظل هذه التراكمات الفلسفية المثيرة، تنعتق معها مباحث فلسفية مشوقة، نشيد بالذكر منها الهرمينوطيقاً^(١) الملامسة للفينومينولوجيا والأنطولوجيا. ويأتي كتاب غراندان بما يجبله من عمق فلسفي ومحاكاة هيرمينوطيقية قدمها مهيب للقارئ العربي بأسلوب سلس ورائق يتوافق

تجشم المترجم الجزائري عمر مهيب جهداً كبيراً في ترجمة كتاب الفيلسوف الكندي جان غراندان (J. Grondin) المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا *Le tournant herméneutique de la phénoménologie*. هذا الكتاب الذي يمكن أن نمرکز سياقه التاريخي والإيستيمي في فترة سبقها ازدهار لمباحث فلسفية كبرى، كالوجودية في ألمانيا وفرنسا في مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات، مروراً بفترة الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات التي بزغت معها اكتشافات لمباحث البنيوية والتفكيكية التي

* أستاذ السيميائية في جامعة لوزان- سويسرا.

** فيلسوف ومفكر كندي (١٩٥٥ -)، متخصص بالفلسفة الكانطية وبفلسفة كل من هانس غادامير ومارتن هايدغر.

*** أستاذ التعليم العالي في الفلسفة في جامعة الجزائر، وباحث ومترجم.

بادئ ذي بدء، نشرع في استكناه مغاليق القراءة الحفرية التي ولج خباياها المترجم عمر مهيبيل، واضعاً غراندان داخل حدود معرفية ومنهجية، ومفصلها على مراحل ثلاث:

بدأ بالفينومينولوجيا المتأصلة في جذورها من الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل، مقراً بالحداقة الفريدة لهذا الفيلسوف وقدرته الهائلة على المناورة داخل إطار إبستيمي - فكري ومنهجي ضيق. فهو سرل يدعي تارة أن «الفينومينولوجيا تعني الدراسة الوصفية للظواهر»^(٦)، ويقر تارة أخرى بأنها العودة إلى الأشياء ذاتها، معرّجاً على أهم سمة تتسم بها هاته الفلسفة ألا وهي القصدية من منطلق أن الوعي هو دائماً وعي بشيء ما^(٧)، بإضافة إلى خطوة الإيبوخية والرد أو الاختزال الفينومينولوجي الذي استحق جدارته بحمل المنهج الفلسفي.

لكن المترجم يعتبر أن هذه الفينومينولوجيا الهوسرلية وقعت في انسداد إبستيمي كون المطمح الأساس للفلسفات كلها هو العودة إلى الأشياء ذاتها وإن تباينت المسالك والنهاج. وبذلك يقتبس المترجم اقتراح أندري دو ميلا القائل بضرورة إماطة اللثام عن الصورة التي مُنيت بها الفينومينولوجيا، وبأن تلتجئ هذه الصورة إلى عالم المعنى والدلالة ودحض جميع الإحالات المرتبطة بمفهوم القصدية وإحالاتها السايكولوجية عند فرانز برنتانو، لينقلنا بعدها المترجم من الأنطولوجيا إلى الهيرمينوطيقا، وحينئذ يستكنه أنطولوجيا هايدغر، مقراً بمدى تعقيد هذا البراديجم الأنطولوجي، ومستظهِراً المقاربة الهايدغرية التي تظهر بسيطة وهي تبطن عمقها الدفين.

قطعاً، طفت فينومينولوجيا هوسرل على سطح الكينونة ولم تفقه المكنون الباطني الذي وجد

وأبجديات التأويلية وإحالاتها الفلسفية المعاصرة، خصوصاً أن المترجم عودنا بين الفينة والأخرى، من خلال كثير من الترجمات التي قدمها في كتاباته الفلسفية، على وضع مقدمات طويلة للكتب التي ترجمها، بما يجعل ولوج المتن المعقد سلساً، وكذا فك طلاس هذا الكتاب المهم.

حري بنا ونحن نعهد إلى استيضاح حيثيات هذه القراءة أن تستوقفنا مصطلحات فلسفية ذات دلالات ألسنية ولاهوتية عميقة. على رأس هذه المصطلحات الهيرمينوطيقا التي مارسها غراندان في متن كتابه الذي نحن بصدد قراءته، ويمارسها في الوقت ذاته المترجم مهيبيل كقارئ ومؤول، لأن للنص المترجم نفسه شيفرته وأفقه الخاص، لكن: أين مكان هذا المنعرج؟ وماهي طبيعته وتظاهراته؟ وكيف استطاع غراندان عبر الانعطاف الهيرمينوطيقية أن يتقصى عويص المحاذير التي تتلبس به؟ إذ حاول هو الآخر، وبحداقة مثيرة، الانفتاح على تفكيكية جاك دريدا، مع العلم أن أي مطارحة هيرمينوطيقية في اللغة تحيل الدازاين لا محالة إلى مقاربتين تأويليتين، إحداهما تنكشف من خلال اللغة الميتافيزيقية المضمرة في غياهب المتن اللغوي والأخرى صارمة دقيقة تبدأ معها لعبة التأويل من لدن المؤلف. وحينما نتباحث مع المترجم بشأن ملايسات اعتماد غراندان على لفظة المنعرج كمنطلق لعنوان كتابه، نجدده يصرح بأنه نهله من أبحاثه الألسنية، وكذلك من فلسفة اللغة.

استهل المترجم الكتاب الذي نحن بصدد قراءته، وهو في خمسة فصول (غراندان، ص 7)، بتقديم مطوّل نهج فيه نهجاً أركيولوجياً، مستقصياً البعد التاريخي للهيرمينوطيقا والتداخلات الكبيرة بينها وبين الفينومينولوجيا والأنطولوجيا، وذلك طبعاً داخل الفلسفة الألمانية على وجه الخصوص.

الهيرمينوطيقية بغية العودة إلى الماهيات بشكل أفضل. ويجدر أن نصرح بأن هوسرل لم ينشر كتبًا بقدر ما كان يعمد وضع أبحاث، وما يمكن أن نعتة بالهيرمينوطيقا في فينومينولوجيا هوسرل هو في كوامن الجملة الفينومينولوجية الشعاراتية الشهيرة «العودة إلى الأشياء ذاتها»، ومعها تبدأ رحلة البحث عن الماهيات المستترة خلف الأشياء، ومساءلة القصدية القابعة خلف الظواهر وإحالاتها، أو بحث مقاصد المعنى التي تشكل الأشياء.

إن المطارحة الفينومينولوجية الهوسرلية تشجبهها إحالات تأويلية عدة يمكن اقتفاء آثارها الجليلة من خلال المسعى الكبير للفينومينولوجيا وهو «العودة إلى الأشياء ذاتها». هذا الإيعاز الهوسرلي نستشف حيثياته من خلال دعوته إلى أن نحتمي من أي نسق ميتافيزيقي، وأن نكتفي بما يقدمه لنا الحدس، ونعتمد إلى الاختزال الفينومينولوجي الذي بفضلته نتخلص من كل ما لا يظهر بشكل «معطى في الحدس». لكن مصطلح ايبوخية (epoche) يدثر بدثار اللبس والغموض؛ فمفهوم الرد (la reduction) تجبله الهيرمينوطيقا بطريقة سرية لأنه يميلنا إلى الاتجاه نحو الأشياء الماهوية المسبوقة بإعادة هيكله لنظرتنا إلى العالم، بحكم أن هناك دائمًا هوة بين القول الخارجي والقول الباطني الذي نحاول استنطاقه؛ هذه الهوة هي مكنن الهيرمينوطيقا، بالإضافة إلى القصدية التي هي في صميمها توتر ينبجس نوره عن الذات باتجاه المعنى؛ هذا التوتر الموجود بين المعنى المقصود والمعنى في حد ذاته. وهنا تعانق الفينومينولوجيا الهيرمينوطيقا كمبحث.

كما اعتبر غراندان أن من أكبر استحقاقات هوسرل الهيرمينوطيقية عدم اختزاله المعنى داخل الاتجاه القصدي للموضوع؛ فالموضوع لا يفعل شيئًا سوى أن يقوم بالمشاركة في تشكيل المعنى الذي

بديله في أنطولوجيا هايدغر باللغة الشعرية الهولدرلينية المقتدرة على حذق بعض ألغاز هاته الكينونة. ويركز بعدها مهيبيل على اللغة بحكم قدرتها على حذق أم الظواهر، أي الكينونة، لأنها وسيلتنا لفهم الكائن، ولكنها ستكون في الوقت ذاته أداة لعدم فهمنا لها وهو ما يفتح الانبجاسة نحو الهيرمينوطيقا التي جعلت غادامير يتجاوز أنطولوجيا هايدغر إلى منحي جديد ينطلق من الهيرمينوطيقا وينحو سالكًا التفكيكية؛ إذ جعل غراندان من هيرمينوطيقا غادامير منعطفًا أساسًا في الربط بين مباحث الفينومينولوجيا والأنطولوجيا. و الأبرز من هذا كله من حيث الرونق توكيداته الكبيرة التي تجمع بين الهيرمينوطيقا وتفكيكية جاك دريدا، معتبرًا تفكيكية دريدا مناقشة لمقارباتية ألسنية كلاسيكية في منحها الغراماتولوجي. طبعًا، هذا حينما نقرأ لدريدا الشاب، بخلاف دريدا المنهك والمنهمك بمساءلة الهوية والأصالة وما جُبلت عليه من نوستالجية ودراماتيكية (غراندان، ص ١٠).

في الفصل الأول: «إسهام هوسرل الصامت في الهيرمينوطيقا»، نجد أن اقتحام هوسرل مجال الهيرمينوطيقا لم يكن البتة مطمحه، بل كان ضد كل ما يمكن وصفه بالفكر الهيرمينوطيقي، كونه يحمل في بواطنه المحنى التاريخاني. ولا أدل على ذلك من الحوار الجدالي بين هوسرل و دلتاي، قطعًا من دون أن ننسى ذلك الصراع الديالكتيكي المرير مع تأويلية هايدغر؛ فهو سرل كان دأبه هو الظواهر ذاتها لا ما يمكن تأويله حول الظواهر. ولكن هل هذا يعني أن هوسرل لم يكن هيرمينوطيقيًا؟

يلفت الفيلسوف بول ريكور في كتابه المثير فينومينولوجيا وهيرمينوطيقا الانتباه إلى بعض المصطلحات التي يستعملها هوسرل بحكم أنها من صميم النهج الهيرمينوطيقي، لكن هوسرل يعمد إلى تأكيد أنه يتداول هذه المصطلحات

والفينومينولوجيا الشاملة في الكينونة والزمان، فمما لا شك فيه أن محادثات هايدغر تناغمت مع المهتمكين بدرسه في الهميرينوطيقا، ولكن بإشادة يغمرها التكتم والمكر، من دون أن ننسى كتابات هايدغر الشاب في دروسه التي لخصها في مشروعه الفلسفي «هميرينوطيقا الحدوث». إنه من الصعوبة بمكان أن نتمثل فينومينولوجيا وأنطولوجيا من دون هميرينوطيقا، وفقاً للقول الغرانداني.

إذاً نعود إلى هميرينوطيقا الدازاين كمنطلق أولاني أصلا في المشروع الهايدغري. وعلينا أن نصرح بأن فيلسوف «الغابة السوداء» أدرج هذا المفهوم لغرض شرح مفهوم آخر هو الحدوث. علينا أيضاً أن نقر بأن مصطلح الدازاين حمال أوجه ليعمد بعدها هايدغر إلى التحوير من هميرينوطيقا الحدوث إلى هميرينوطيقا الدازاين. حقاً إن مصطلح هميرينوطيقا عند هايدغر مرتبط بصورة ركيزة بالفهم، أي فهم الدازاين لحقانية وجوده، وبذلك يكون تمسك هايدغر بهيرينوطيقا الدازاين يعني بصورة أكثر جلاءً إعادة تزويده بالوسائل التي تمكّنه من شحذ انتباهه إلى وضعيته الخاصة ككائن هناك. تحقيق أن نعتبر هميرينوطيقا هايدغر بمنزلة ممارسة للأنوار، وتكون قصدانية هايدغر في النهاية إخراج الدازاين وانبجاسته المفتحة وتهديم كل ما من شأنه أن يقف حائلاً أمام التملك الملكوتي لخصوصية الدازاين وفرديته الذاتية. لذلك يجدر بنا أن نضيف بسرعة إضاءة هميرينوطيقية إلى الدازاين لأن الدازاين ما زال مخفياً عن ذاته بفرديتها، خاضعاً للمثرثرين بشتى إسقاطاتهم الأبيقية والساساتية والأيدولوجية، وهذا ما يحول دون بلوغ الدازاين الأشياء ذاتها.

نشير في قراءتنا لـ **الفصل الثالث: «الانتقال من هميرينوطيقا هايدغر إلى هميرينوطيقا غادامير»**

يولد معه. وبذلك، يكون هوسرل من خلال توجيهه الفينومينولوجيا بمنحى القصدية، قد ولج الهميرينوطيقا من بابها الواسع. كما أنه حري بنا أن نشير إلى اعتبار التصور الهميرينوطيقي للدازاين، بما هو مشروع مقذوف تردد صداه في تصور هوسرل بشأن «عالم الحياة»، المصدر الأول لكل تشكّل للمعنى (غراندان، ص ٧٤).

إن مصطلح الهميرينوطيقا يظل بلا أدنى شك الأقل وضوحاً داخل تراتبية هايدغر المعجمية^(٤)، كما يرد في **الفصل الثاني: «الهميرينوطيقا في مؤلف الكينونة والزمان»**. والمثير في هذا الفيلسوف أن فهمه صعب وسهل في آن معاً، بحكم لغته ذات النغمة الصوفية^(٥).

يستهل غراندان هذا الفصل بعرض إحدى أهم جُمَل مؤلف هايدغر المركزي الكينونة والزمان التي اعتبرها المؤلف مهمة مؤداها أن «الفلسفة هي أنطولوجيا فينومينولوجية كلية تنطلق من هميرينوطيقا الدازاين بما أنها تُعدّ تحليلاً للوجود قامت بتحديد نهاية الخيط الموجه بأي مطارحة فلسفية، حيث تبدأ انبجاسة هذا الوجود أو حيث يفترض فيه أن ينبجس»^(٦)، وهذه جملة هايدغرية اعتبرها غراندان مثقلة وتحمل تمويهاً من نمط هميرينوطيقي للدازاين. وحري بنا، ونحن نلج المتن الهايدغري الأصيل (الكينونة والزمان) أن نستكنه بوضوح مدى استيعاب الكتاب مباحث الأنطولوجيا والفينومينولوجيا. أمّا ما يتعلق بالهميرينوطيقا، فإن متنها لم يحظ إلا بالنزر اليسير في نصية هايدغر الركيزة (نصف صفحة على أقل تقدير). إنها باقتدار تكتم عرضي يقودنا إلى نوع من إلزامية أن يكون المنطلق الأنطولوجي والفينومينولوجي من هميرينوطيقا الدازاين. ولكن، لماذا؟ وعلى أي مستوى؟ وكيف تشكل الهميرينوطيقا نقطة انطلاق الأنطولوجيا

الإبانة الممكنة، أن موضوع الهيرمينوطيقا هو «الدازين الفردي لكل منا»، حتى تتمكن من أن تساهم في استنهاض يقظة راديكالية بخصوص الذات المتماهية مع ذاتها، وهرمينوطيقا «الكينونة والزمان» ستلجأ إلى الاهتمام بالدازين بطريقة تصاعدية.

• هيرمينوطيقا تاريخ الميتافيزيقا: إن نسيان الكينونة يدخل ضمن التركيبة النسقية للميتافيزيقا ذاتها، بل إن التاريخ الغربي كله يطبعه هذا النسيان للكائن على نطاق واسع.

• غادامير في مواجهة المشروع الهيرمينوطيقي لهايدغر: حري بنا أن نطرح سؤالاً مركزياً مفاده: كيف نموقع منظومة غادامير الهيرمينوطيقية في مواجهة تلك الخاصة بهايدغر؟

إننا تارة نجد أن غادامير يستمد إلهامه من هيرمينوطيقا الحدوث «عند هايدغر الشاب»، ونتجشم طوراً صعوبة في كوننا لا نقدر على إلحاق غادامير بأي من التصورات الهيرمينوطيقية الثلاثة التي دافع عنها هايدغر. لا بد أن نقر بتأثر جلي بهايدغر المفكر التاريخي، المنهمك باللغة والنهج مسلك الأثر الفني، إلا أننا لا نلحقه بذلك المشروع الخاص بهيرمينوطيقا تاريخ الميتافيزيقا (غراندان، ص ١٠٣).

• في سبيل فينومولوجيا محورها حديثة الفهم: ينطلق غادامير من الفهم ويحاول بهذا ممارسة الهيرمينوطيقا بدءاً من التساؤل التالي: ما الذي يقع لنا؟ وماذا يأخذنا عند إحساسنا بأننا فهمنا؟

إن غادامير فهمه - وفق السليقة الألمانية التي فطر عليها - من معناه الأول، وهو الحدث. ومع ذلك، فإن الحدث الذي يهم غادامير ليس ذاك المتعلق بتلك اللعبة المركبة بين تحفي الكائن وعطائه وهو في قمة عزلته، ولكنه الحدث

إلى أن من باب المواضعائية اعتبار هيرمينوطيقا غادامير استمرارية طبيعية لهيرمينوطيقا هايدغر، وهو ما جعل غادامير الأكثر وفاء لأستاذه، فهل معنى ذلك أن غادامير سارع إلى النهج الهايدغري في مبحث الهيرمينوطيقا، ونحن نعرج على مبحث الهيرمينوطيقا الهايدغري فنقع فريسة التعقيد المتفصل على ثلاثة مناح كبرى:

- هيرمينوطيقا الحدوث الأولى

- هيرمينوطيقا الدازين في الكينونة و الزمان

- هيرمينوطيقا المرحلة المتأخرة، و تتعلق أساساً بتاريخ الميتافيزيقا.

المنحى الأول نستطيع استيعابه تحت شعار «من أجل هيرمينوطيقا للحدوث». و يعيدنا غراندان مرة أخرى إلى هيرمينوطيقا هايدغر، وبالتحديد هيرمينوطيقا الحدوث الأولى التي تتلبس بها غوامض هي من صميم غياهب هيرمينوطيقا هايدغر. وإذا عمدنا إلى الاستكناه المقارباتي لمصطلح «الحدوث» (facticité) الذي يعني المعيش وفق طريقة الكائن المعني (أن يكون للدازين حدوثية نفسه)، فإن الحدوث في النهاية يعيش وسيعيش داخل انهماك الذات بذاتها. إن المهمة الأولى للهيرمينوطيقا هي العمل على تذكير «الحدوثية» بذلك الطابع الكينوني الذي هو طابعي أنا، فهذا الكائن - المتدب هو التأويل ذاته. لذلك تلتجئ هيرمينوطيقا الحدوث إلى إخراج الحدوثية من واقعة نسيانها لذاتها أو «اغتراب الذاتوية» إلى منحنى التيقظ التجذري الراديكالي اتجاه الذات لذاتها (غراندان، ص ١٠١).

ثم يعرج غراندان على «هيرمينوطيقا الكينونة والزمان» التي هي استمرارية طبيعية لهيرمينوطيقا الحدوث، في الوقت الذي نجد أن هيرمينوطيقا الحدوث الأولى تردد على مسامعنا، وبكل أنواع

لذات. بهذا المعنى أيضاً ليس المنعرج الهيرمينوطيقي للفينومينولوجيا بأقل أهمية، حتى لا نقول جوهرية، من المنعرج الفينومينولوجي للهيرمينوطيقا.

نلاحظ في الفصل الخامس: «ماهية التفكيك عند جاك دريدا» أن دريدا يقدم لنا تعريفاً واحداً للتفكيك؛ تعريف مقتضب يتميز بالإيجاز ومن دون أي تحذلق: «إنه أكثر من لغة»، وهو ما جعل كثيرين من جمهوره المعجب به يعتبرون تعريفه استفزازياً؛ فهل معنى هذا أن هناك أكثر من لغة في التفكيك، لأن لغة واحدة لا تكفي أبداً، أم مؤدى لغة معينة لا يمكنها البتة الوفاء بالوعد الذي قطعت على نفسها من أنه ينبغي أن يكون هناك أكثر من لغة واحدة؟ و بمقدار ما نضعف عدد اللغات أو احتمالات قيام هذه اللغات، نستشعر حدود هذه اللغة بما هي كذلك. لكن، ما سر كل هذه المعاناة الدريدية؟

يتعين أن نلج خبايا كتابه أحادية الآخر اللغوية التي نستشف من مضامينها أن دريدا مسكون بهموم لغات «أجداده» (العربية والعبرية تحديداً)، لأن اللغة الوحيدة التي تعلمها هي اللغة الفرنسية، لكنه يشك دوماً في أنه على وشك الرحيل، إذ يقول: «أنا لا أملك سوى لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي»؛ ذلك أن اللغة الوحيدة التي أتقنها وأحبها كانت دائماً لغة الآخر. ولكن دريدا وجد نفسه متمهياً مع القوة الاستعمارية في مستوى اللغة، ناكراً أصوله الأولى المخجلة كيهودي وكأحد أبناء «الأقدام السوداء». إن التجربة المتعلقة بأحادية الآخر اللغوية هي في الواقع تجربة شاملة لأنها تترجم الاغتراب الأساس للمسألة اللغوية عند الانسان^(٧).

المتعلق بالفهم أو المتعلق بحصة الحدث في كل فهم.

وبخصوص الذات المتماهية مع ذاتها، فإن هيرمينوطيقا الكينونة والزمان ستلجأ إلى الاهتمام بالدازاين بطريقة تصاعدية.

في الفصل الرابع: «المنعرج الفينومينولوجي للهيرمينوطيقا وفق منظور هايدغر وغادامير وريكور»، نجد أن غادامير يعتقد أن هوسرل وهايدغر هما العرابان الحقيقيان لهذا المنعرج الهيرمينوطيقي للفينومينولوجيا؛ فهو سرل انشغل بالفينومينولوجيا الهيرمينوطيقية عبر ذلك الاهتمام الكبير بما يدعوه القصدية الطبيعية للشعور.

كان هايدغر يجذب أن تكون الفينومينولوجيا الخاصة به أكثر فينومينولوجية مما هي عليه، أي أكثر هيرمينوطيقية من هيرمينوطيقية هوسرل وأكثر فينومينولوجية من فينومينولوجية هوسرل أيضاً.

حري بنا، ومن باب الحصافة، أن نؤكد الهدف الجوهرية لغادامير الذي يعتقد أنه لن يكون هناك فهم بمنأى عن اللغة، وبالتحديد بمنأى عن البحث في مجال اللغة؛ فهيرمينوطيقا غادامير الفينومينولوجية تدعو إلى يقظة الفهم المتحفز لمسألته اللغوية. أمّا بالنسبة إلى ريكور، فإنها لا تود أن تبين لنا بشكل واضح ما هي مدينة به لهايدغر، إلا أنها تعمل على تمديد منظومته الهدمية التقويضية من خلال قبولها، و بأناة، هذه الألفة الطويلة المتعلقة بالتموضعات. كما أنها قبلت، وعن طيب خاطر، أن يعمد هايدغر أو غادامير إلى أخذ العلم (غراندان، ص ١٠٦).

فالتقويض أو التهديم الهيرمينوطيقي يود بهذا المعنى أن يباشر ما يسميه بول ريكور فينومينولوجيا هيرمينوطيقية أو فهماً معيناً

إلى أستاذه ظاهرياً، أن نجد من مضامينه الماثلة في متن الكينونة والزمان ما يصادق على ذلك ويدعمه بحكم أن موضوع الفينومينولوجيا الأوضح رونقاً هو ذاك الذي لا يتبدى عياناً. وهذه الأطروحة تخالف النهج الهوسرلي، فالشيء ذاته بالنسبة إلى أطروحته الخفية القائلة إن على الكائن أن يكون، هذا هو الموضوع.

- الفينومينولوجيا عنواناً لمنهج معين: اعترف هايدغر في البداية أن علماً فينومينولوجياً يدعي العودة إلى الظواهر هو فكرة بديهية تشبه من يحاول دفع الباب ليفتحه، وهو في الأصل مفتوح، وهنا نستكنه مقولة هايدغر في رسالة بعث بها إلى جولوس ستانزل: «لن أتحدث إلا عن الأشياء ذاتها، هذا وعد مني، لن أحكي لكم حكايا لا معنى لها».

عمد هايدغر إلى ممارسة الفينومينولوجيا من منطلق الأشياء ذاتها، ولكنه زادها معنى وانفتح من خلالها على الفكر اليوناني ومصطلحاته التأويلية من مثل أليثيا واللاتحجب ولوغوس وفيزيس والانثاق، كما تصبح الفينومينولوجيا عند هايدغر إظهاراً للظواهر انطلاقاً منها هي ذاتها.

هكذا نرى أن من الصعوبة أن نجعل من مفهوم معين مفهوماً فينومينولوجياً يمكنه أن يصف، وبطريقة جديدة، هاته الأخيرة.

إن الماهية الجوهرية للفينومينولوجيا إنما تنجلي في القدرة على إظهار الظواهر والتي تعرف معنى الحقيقي للإظهار، أكان في عظمته أم في ضعفه، ويعني في النهاية صيرورة اللغة. بهذا المعنى، فإن الفينومينولوجيا الأحسن ترتيباً وتنظيماً تصبح هي ذاتها الهرمينوطيقا (غراندان، ص ١٨٧).

إن التفكيك بهذا المعنى يود أن يكون بمنزلة ذلك التذكير المستحيل بالنسيان؛ التذكير بذلك الاغتراب الضروري لكل لغة وثقافة.

وقد حرصت الباحثة الهيرمينوطيقية على إمطة اللثام عن الحوار بين مفهوم الفهم الغاداميري والتفكيك الديردي؛ هذا الحوار الذي تمخض عنه انفتاح على الآخر وبحث عن لغة أخرى غير لغتي أنا.

وأحادية الآخر اللغوية تتعلق براديكالية القابلية للقفز، و نستجلي من ذلك أن الفهم بالنسبة إلى الهيرمينوطيقا إنما يصدر عن هذه القابلية الجامحة للقفز، فلا معقولة من دون نسيان، ومن هنا فإن التفكيك والهيرمينوطيقا يتحدثان لغة الآخر المستحيلة، فلغة واحدة لا تكفي أبداً.

خاتمة:

«الفينومينولوجيا المشطوبة»

استهل جان غراندان خاتمة دراسته بعبارة مفادها: «ما هو نقيض مصطلح الفينومينولوجيا؟ إن نقيضها هو الفينومينولوجيا المشطوبة بحكم أن استخدام هاته اللفظة هو لوصف فلسفة معينة. كما أن من الأجدر أن أمارس هذه الفلسفة بطريق الصمت عن الحديث عنها، أي أن نمارس فينومينولوجيا تقوم بشطب ذاتها بذاتها. أنه نوع من ممارسة شطب المفاهيم (غراندان، ص ١٦٥).

إن أي بحث فينومينولوجي يعمل وكأنه لوحة جميلة تجعلنا نرى ما هو مرسوم ولكن لا نقدر على التساؤل عما يتضمنه هذا الرسم. وربما تكون الفينومينولوجيا (المشطوبة) مجال موضوعات معينة أو منهجاً أو تقليداً فلسفياً:

- الفينومينولوجيا بما هي مجال موضوعاتي: حري بنا ونحن نستكنه خبايا كتاب هايدغر الذي أهدها

الهوامش

- (٤) عمر مهبيل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥)، ص ٢١.
- (٥) دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، ترجمة وجيه قانصو (بيروت: الدار العربية للعلوم؛ الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٧)، ص ١٤٧.
- (٦) مارتن هيدجر، الكينونة والزمان، فتحي المسكيني (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٣).
- (٧) جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة وتقديم عمر مهبيل (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون؛ الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٨)، ص ١٤.

- (١) Hermeneutics، تعني الشارح، وتعلق بالترجمة والتفسير، وخصوصًا ما له علاقة بتفسير النصوص المقدسة التي يعتبرها المؤمنون وحيا إلهيا أو كلمة الله.
- (٢) إدموند هوسرل، أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية: مدخل إلى الفلسفة الفنومينولوجية، ترجمة وتقديم إسماعيل المصدق؛ مراجعة جورج كتورة (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨)، ص ٩.
- (٣) إدموند هوسرل، فكرة الفنومينولوجيا، ترجمة فتحي أنقزو (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧).